الفصل الأول

الثقافة وإشكاليتها

أولاً : مفهوم الثقافة.

ثانياً : نشأة الثقافة وتطورها.

ثالثاً : الثقافة غزو أم هيمنة أم اختراق.

- الهوية الثقافية.
- الغزو الثقافى.
- الهيمنة الثقافية.
- الاختراق الثقافى.

رابعاً : الإسقاط الثقافى.

خامساً : الثقافة + الحضارة = مدنية.

سادساً : نهاية العلم.

سابعاً : التنوع الثقافى الإنسانى المبدع.

ثامناً : التربية والثقافة «اتصال أم انفصال».

تاسعاً : ابن خلدون بين الجهل بالأصالة واتهامات الحداثة.

عاشراً : فسبحان الله.

أولاً : المفهوم :

إن مدنـية أى أمة تستلزم حضارتها والأخيرة تستلزم ثقافتها وبالتالى فإن وجود مجتمع ما يتطلب بناء ثقافى متنامى يحافظ عليه المجتمع لأنه يعكس تاريخ حاجات ذلك المجـتمع واسـتجابة مؤسسـاته وكياناته العقلية والفكرية إلى تلك المتطلبات فالتاريخ الـثقافى متغـير تابع لمتغير مستقل هو ما يلم بالمجتمع من تحديات لحضارة الأمم لأن الـثقافة تـتحول إلـى حضارة فمدنية ثم تصبح تلك المدنية ثقافة لتستحث مرة أخرى مستوى حضارى جديد .

الأمر الذى يجعل من الوقوف على مفهوم الثقافة حاجة ضرورية نستليم منه ما ينبغى علينا أن نضيفه فى ذلك البناء كلّ على حسب، إسهامه فى ميدان بحثه حيث وضع لهـا الـبعض مفهوما : "أنها ذلك النسيج الكلى المعقد من الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد والاتجاهات والقيم وأساليب التفكير والعمل وأنماط السلوك وكل ما يبنى عليها من تجديدات أو ابتكارات أو وسائل فى حياة الناس فى ظل جماعة إنسانية"(١) .

ويقول تايلور "Tylor" أنها ذلك الكل المعقد الذى يشتمل على المعرفة والعقيدة والفـن والأخلاقيات والقانون والعادات والقدرات الأخرى التى يكتسبها الإنسان كعضو فـى المجتمع ... وأهم نقطة فى تعريف " تايلور" للثقافة أنها تشتمل على القدرات التى يكتسبها الإنسان كعضو فى المجتمع (٢) .

بـيد أن ما سبق جاء على شكل تعريفات أحيانا وتارة أخرى على شكل مفاهيم وهذا خلط بين التعريف والمفهوم " فالتعريف يعنى تحديد موضوع العلم وماهيته بالحد الـتام والجـزئى بالترتيـب أما المفهوم فيعنى : وسيلة من وسائل ترتيب الفكر – أو عنصـر من عناصره – يستخدمه المتخصصون فى تواصلهم فى الجيل العلمى الواحد والأجيال المتعاقبة لبلوغ درجة قريبة من الدقة والاكتمال فى العلم (٣) .

هـذا وقـد أشـار "كروبر وكلاهون" بعد فحص ما يزيد على مائة تعريف من الـتعريفات الـتى قدمها الأنثروبولوجيون للثقافة أنها لا تميز بوضوح بين المفهوم من ناحـية والأشـياء الـتى يشير إليها من ناحية أخرى ... ثم خلصا إلى صياغة المفهوم الآتـى للـثقافة هـى كل مخططات الحياة التى تكونت على مدى التاريخ بما فى ذلك المخططـات الضمنية والصريحة والعقلية واللاعقلية وهى توجد فى أى وقت كموجات

---

(١) تركى رابح : *أصول التربية* ،(الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ،١٩٩٠م) ،ص ٣٢٠.

(٢) شبل بدران ، أحمد فاروق محفوظ : *أسس التربية* ،(الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ،١٩٩٦م)، ص ٩٢.

(٣) ماهـر عبد القادر محمد : *فلسفة العلوم رؤية عربيـة* ، (الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩م) ، ص ص ٢٥ ، ٣٧ .

بسلوك الناس عند الحاجة ... أو أنها ثقافة مجتمع من المجتمعات تمثل نسق تاريخى المنشأ يضم مخططات الحياة الصريحة والضمنية يشترك فيه جميع أفراد الجماعة أو أفراد قطاع خاص معين منها([1]).

وبذلك يتأكد لدينا أن مفهوم الثقافة لم يأخذ طريقه إلى الفهم بعد إذ أن هناك خلط كبير بين كنه مفهوم ثقافة كشىء فى ذاته وبين مفهوم الثقافة كشىء لذاته وأن كل باحث يذهب فى مفهوم الثقافة انطلاقا من قاعدة أيديولوجية وفكرية معينة تجعله أسيراً لها فى تناول ذلك المفهوم ولو أنهم أخذوا بالمقولة الفكرية : دراسة المحسوس تتطلب التجرد من المحسوس لبحث ذلك الموضوع بموضوعية لتوصلوا إلى حقيقة ذلك المفهوم والذى يعنى المركب بين الظواهر الاجتماعية والتاريخية يستمد وقودهُ من حاجات ومتطلبات المجتمع فى مواجهة تحديات الواقع والمستقبل تستنفر طاقات الأفراد والجماعات لإيجاد الحلول التى تمثل بدورها محصلة نضج العقل البشرى وقمة إنجازه العلمى .

ورغم ذلك فإن "ذكى نجيب محمود" يذهب إلى أن ذلك المفهوم – الثقافة – هى الكل المتكامل المتجانس والذى يتألف من أجزاء مختلفة لها وظائف مختلفة هدفها تلبية حاجات متبادلة وهو هنا يشبه المجتمع الثقافى بالجسم البيولوجى المتناغم([2]) ولعل ما سبق يعد خير شاهد على انتقال عدوى عدم الفهم المفاهيمى بل وتوارث هذا الخطأ وتراكمه حتى يصبح حقيقة ملموسة ويختفى الوعى بذات المفهوم .

ثانياً : النشأة والتطور :

إذا كان المؤرخون يذهبون إلى أن التاريخ هو ذاكرة أى أمة من الأمم فإن الثقافة هى عقل تلك الأمة وبالتالى فإن مقولة هيجل "التاريخ فى قلب العقل" إشارة إلى أن الثقافة تمثل الحركة الجدلية لنمو العقل الإنسانى فكانت الثقافة فى العصور القديمة قبل الميلاد تعبر عن سرعة الحركة العقلية والجدلية فكانت الحياة أشبه بالحالة الصلبة للمادة بكل ما فيها ثم كان العصر الوسيط امتداد لذلك بيد أن نهاية ذلك العصر انبثقت منه بذور النهضة الأوربية على يد الحضارة الإسلامية والتى امتدت ما بين القرن الثامن الهجرى والثالث عشر الميلادى حيث لو أمهل القدر الإمبراطورية الإسلامية قرناً آخر من الرخاء والتماسك لكانت الثورات العلمية ذات تربية عربية إسلامية وتلك المرحلة حتى عصر النهضة كانت أشبه بالحالة السائلة للمادة والتى شُكّل معها العصر

---

(١) رالف بيلز وهارى هويجر : "مفهوم الثقافة" ، ترجمة / محمد سبيلا ، عبد السلام بن عبد العالى ، *سلسلة دفاتر فلسفية* ، (الدار البيضاء ، دار توبقال للنشر، ج(٢) ، ط(٢) ، ١٩٩٦م)، ص ١٣.

(٢) محمد فايز الطراونة : *الأنا والآخر وهدم النمطية* ، (الكويت ، المجلس الوطنى ، مج(٢٧) ، ع(٣) ، ١٩٩٩م) ، ص ٢٨٠ .

التـــنويرى والنهضـــوى من قبل الثورة الصناعية حتى القرن التاسع عشر إلى أن انبثق الكمبـــيوتر فـــى منتصف القرن العشرين فكانت الحالة الغازية للمادة – للعالم – والآن نحن نعيش حالة البلازما العالمية .

هذا ويُعد الإنسان هو الكائن الحى الوحيد فى ظننا الذى يحاول أن يفهم ويعرف ما حوله ومن هو يحاور الطبيعة مستعينا بخبراته وتجاربه التى ترسبت مع الزمان فى الذاكـــرة الجمعية أى مستعينا بالتراث الثقافى مستعينا علاوة على فعله النشاط ذلك لأن الطبيعة لا تحاوره أو لا تكشف عن نفسها فى ثوب واحد على نحو نمطى وإنما متغيرة أبدا وجوديا من حيث صورتها فى الوعى مع التغير الحضارى الثقافى (١) .

وإذا مـــا دققنا النظر فى الإنسان لوجدناه كائنا بيو ثقافى حيث كل فعل إنسانى هـــو فعـــل بـــيوثقافى (الأكـــل ، الشراب ، النوم ، الرقص ، التفكير) فالإنسان كائن بـــيولوجى كلية فمثلا أنشطته الروحية والفكرية والنفسية هى أنشطة حية وحيوية ومن حيـــث كونـــه كائنا ثقافيا كلية فإن الأفعال البيولوجية هى أيضا الأفعال الأكثر انطباعا بالـــثقافة (الميلاد ، الموت ، الزواج) فالأسرة مثلا هى بنفس الوقت نواة لإعادة الإنتاج البـــيولوجى للأفـــراد ومدونة ثقافية تُشكل فيها تربيتنا وخلية اجتماعية تشكل جزءا من مجموع أوسع (٢) .

"وعلـــيه لا يمكـــن أن يحدث اختزال ثقافى فى تاريخ العلوم ومجالات المعرفة المختلفة لأن الثقافة تتضمن أيضا نقل تلك المعرفة وتوصيلها بأشكال تحدث آثارا ثقافية وفكرية معينة"(٣) .

ثالثاً : الثقافة غزو أم هيمنة أم اختراق :

- **الهويةالثقافية :**

تشـــير الهوية الثقافية فى جوهرها إلى العرقية وهذه تميز جماعة يقول أفرادها أن لهـــم تاريخـــا وأصـــولا مشتركة وتراثا ثقافيا خاصا حيث تلتقى الهوية العرقية مع نظـــيرتها الثقافـــية فقـــط فى حالة القبلية البدائية المعزولة ، وإذا استطاعت تلك الهوية

---

(١) شوقى جلال : ثقافتنا والإبداع ، *سلسلة اقرأ* ، (القاهرة ، دار المعارف ، ع(٦٢٧) ، ١٩٩٨م) ، ص ٧ .

(٢) مـــوان : "الإنسان كائن بيو ثقافى"، ترجمة/ عبد السلام بنعبد العالى ، *سلسلة دفاتر فلسفية* ، (الدار البيضاء ، دار توبقال للنشر، ج(٢)، ط(٢) ،١٩٩٦)، ص ص١٣-١٤.

(٣) كريســـتيان جـــاكوب : "جـــذور الـــثقافة الموسوعية" ، *سلسلة مجلة ديوجين* ، (القاهرة ، مركز مطبوعات اليونسكو ، ع(١٢٢/١٧٨) ، (د.ت)) ، ص ص ٣-٤.

الثقافـية – مـن وجهة نظر علماء الاجتماع – أن تكشف عن نفسها كظاهرة جماعية يمكن أن تمضى فى ثلاثة مستويات مختلفة :-

أ- البعد التاريخى ب- البعد الاجتماعى ج- البعد السيكولوجى

والتى تميز الثقافة بالديناميكية والارتباطية وقابلية الحركة والتغير (١).

ولعل مفهوم الهوية الثقافية يُعد توجها منبثقا من مفهوم الثقافة يمثل بصمة عقلية لكل أمة على حسب منطلقاتها الاجتماعية بأنماطها المختلفة سياسية واقتصادية وتربوية وعلمـية . . . ألخ ، ومن ثم فإن الهوية الثقافية تعبر عن مسيرة حياة المجتمع وسجله الحضـارى وعلـيه فإنه يبذل – أى المجتمع – قصارى جهده للزود عن ثوابته وإن لم يكن عن ثوابته يكون عن متغيراته بغير الوعى بصيرورة تطور العقل البشرى .

إذن الـثقافة عبارة عن عناصر متعددة منها اللغة والدين والقرابة . . الخ فإذا ما جمع بين جميع تلك العناصر نسيج واحد يستظل به عدد كبير من أفراد مجتمع ما فإنهم يصبحون على هوية واحدة (٢)

نخلـص مما سبق أن الهوية الثقافية هى بصمة جينية جنينية لا يمكن تكرارها وأنها تحمل بداخلها مجموع جينات الجنس البشرى لمجتمع ما منذ نشأة الجينوم البشرى وبالـتالى فـإن مسـح هذا الجينوم يُعد ضرباً من الخيال ومشروعاً استعمارياً ضخماً يستوجب إلغاءه من كل فرد من أفراد المجتمع والتاريخ يعلمنا أن هذا العمل مستحيل .

- **الغزوالثقافى :**

عند تحديد مفهوم الغزو الثقافى نجد أن هناك آراء متضاربة عن المفهوم كشىء فـى ذاتـه وأيضاً عن وجود غزو ثقافى فى الأصل فالبعض يرى أن أى ثقافة ومنها الثقافة العربية محصلة تلاقح ثقافات عديدة مثل اليونانية والنازية والرومانية والهندية . . . الـخ فكـيف نُعد ما يوجد من تلك الثقافات لدينا غزواً ثقافياً طالما ثقافتنا ملقحة من تلـك الثقافات بمعنى يذهب أصحاب هذا الرأى بأنه ليس هناك غزواً وآخرون يذهبون إلـى أن مـا يأتى إلينا من ثقافة تحمل عقائد واتجاهات وسلوكيات ومنتجات مادية من دول أخـرى يُعد غزواً ثقافياً بيد أن إذا سلمنا بأنه ليس هناك ثقافة منعزلة أو ثقافة تنشأ مـن فراغ فإن الغزو الثقافى هو أداة متطورة لإحداث ما يسمى بالتلاقح الثقافى الذى لم

---

(١) سـبيلم أبو : "تغيير الهوية الثقافية" ، *سلسلة مجلة ديوجين* ،(القاهرة ، مركز مطبوعات اليونسكو ، ع(١٧٧/ ١٢١) ، (د.ت)) ، ص ص ٥،٧.

(٢) حسـين شـاويش : "مفهـوم الـثقافة ، وتحديد الهوية" ، *مجلة دراسات عربية* ، (بيروت ، دار الطليعة ، ع(١٠/٩) ، ١٩٩٩م) ، ص ص ١٤،١٥.

يتوقف طوال التاريخ ، إلا أن هناك ثوابت لدى كل ثقافة لا يمكن غزوها وإذا ما حدث ذلك يعد غزواً أما المتغيرات فتتطلب التزاوج وإلا توقف نمو الكيان الموروثى للفكر الاجتماعى البشرى (١) .

هذا ويمكن وضع تصوراً عما يحيط بمفهوم الغزو من غموض إذ نجد أن الغزو الثقافى منهج إمبريالى استعمارى أستخدم عندما سقطت الأقنعة الاستعمارية التى استخدمت الآلة العسكرية ومع ذلك فإن هذا المنهج الجديد للاستعمار له آليات عديدة منها السياسة والاقتصاد والتجارة والإعلام وثقافة الصورة والكلمة والسندوتش والأكلات سريعة الإعداد أى يستند إلى نمط استهلاكى لأن مؤسسات الدول مع عدم جدواها حالياً إلا أنها تُعرى ألاعيب الاستعمار .

هذا ويعد الغزو الثقافى محاولة تستهدف غسيل ثوابت الماضى السحيق لصالح الانفتاح والمتغيرات الموجهة كالهندسة الوراثية التى تخرج لنا نوع من الفراولة ولكنها بحجم البرتقال كذلك يراد بالإنسان وإن كان ذلك يؤدى فى مجموعه إلى ضرب وإنهاء هوية الشعوب إلا أنه جريمة تاريخية يُريد بها الاستعمار إنهاء محصلة الكائن البشرى فى العبور إلى المستوى الإنسانى وذلك بالقضاء على المكتسبات العقلية التى جعله الله بها سيد هذه الأرض إذن فالقوى الاستعمارية تناقض نفسها تدعو إلى عقلانية الحياة ثم تكرس إمكانياتها لهدمها لدى الشعوب الأخرى فهناك إذاً ازدواجية تستحل لنفسها ما تحرمه على غيرها وهذا يقود بالفعل إلى ما يسمى بالعنصرية وسمو جنسها على الأجناس الأخرى التى ينبغى ألا يكون لها تاريخاً ثقافياً يحوى هويتها حتى يتوفر لديهم ما كان قديماً وهو المادة الخام للعبودية والرق الثقافى وتصبح دول العالم الثالث الفقير قطيعاً من الحيوانات المعاصرة ليستعيض بها عن الحيوانات المنقرضة بسبب عدائه وسلوكه مع الطبيعة ولعل ما ذهب إليه العالم بخصوص الاستنساخ محاولة صريحة لذلك .

- **الهيمنة الثقافية :**

وإذا ما تناولنا مفهوم الهيمنة الثقافية لوجدناه مفهوماً تطورياً عن مفهوم الغزو الثقافى بما يتوافق ومتغيرات الحياة السياسية والاقتصادية فيما يُعرف بالحراك الاجتماعى العالمى أو بما يطرأ على تضاريس الحاجات الاجتماعية وما يترتب عليه من استجابات لمؤسسات الدولة الفكرية والعلمية وكذا استجابات أفراد المجتمع إلى مواجهة تلك التحديات بتضمين الإيجابيات ومناهضة السلبيات .

---

(١) محمود أمين العالم : *الوعى الزائف فى الفكر العربى المعاصر* ، (القاهرة ، دار الثقافة الجديدة ، ١٩٨٦م) ، ص ص ١١٧.

هذا ويمكن صياغة مفهوم الهيمنة باعتباره سيطرة القوى المهيمنة على الميراث الثقافى والثابت فيه وليس فقط بل تضليل عوامل التغير فى هذا التراث بما يجعل تلك الثقافة فى حالة اللاتوازن فلا يميزون بين الثابت والمتغير فيؤدى ذلك إلى برمجة المجتمع لتحقيق أهداف المجتمع المهيمن دون رد فعل كما يفعل الفيروس عندما يدخل الخلية يهيمن على صفاتها الوراثية ويوجه الخلية إلى العمل لصالحه وإنتاج فيروسات جديدة .

الأمر الذى يجعل من الهيمنة عامل خطورة على الثقافات وهذا يُعد طوراً بالغ الخطورة من تطور الفكر الاستعمارى كالمرحلة التى يصل فيها الفيروس إلى السيطرة على آليات عمل واتصال العضو البشرى ثم إعادة برمجته لتحقيق أهدافه.

ولعل ما مرت به البشرية من موجات حضارية يبرز كنه هذا المفهوم حيث عاشت المجتمعات البشرية صداما بين مد ثلاث موجات حضارية بدأت بالحضارة – الثورة الزراعية – الزراعية التى كانت لها أيديولوجياتها السائدة ثم تبعتها الحضارة الصناعية بعد عشرة آلاف سنة فبدلت وجه الحياة على الأرض وفرضت أيديولوجياتها العليا على مدى ثلاثة قرون التى اعتمدت على ثلاث عقائد أساسية هم :-

- عقيدة حق الإنسان المطلق فى استغلال الطبيعة حتى لو قاد ذلك إلى استنزاف موارد الطاقة غير المتجددة وتلويث الغلاف الجوى .
- عقيدة تعتبر الإنسان قمة التطور على الأرض وأن الحضارة الصناعية أعلى أشكال التطور الحضارى الأمر الذى برر استعمار الشعوب لها واستغلال ثرواتها(١) .

أما موجة المد الحضارى الثالثة التى يرى البعض أنها سوف تكتمل خلال عدة عقود فقط حيث يسير التاريخ بتسارع كبير فى عصرنا هذا ... ويذهب صاحب هذا الرأى أن تلك الموجة سوف تؤثر على كل فرد منا ، فالأسرة مجزأة والاقتصاد محطم والأنظمة السياسية مشلولة والقيم تضرب بعرض الحائط وهى تتحدى علاقات القوى السائدة وامتيازات النخب المعرضة للخطر وتقدم الأرضية التى ستتصارع عليها قوى المستقبل (٢) .

---

(١) راجى عنايت : *ثورة حضارية زاحفة* ، (القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٨٧م) ، ص ص ٩ ، ١٠ .

(٢) ألفن : " الموجات الثلاث "،ترجمة / عبد السلام بنعبد العالى ، *فلسفة دفاتر فلسفية*، (الدار البيضاء ، دار توبقال للنشر ، ع(٦) ، ١٩٩٦م) ، ص ٣٢ .

وتذهب آراء أخرى أن سمات الحضارة الثالثة تتلخص فيما يلى([1]) :-

- أمـــل جديـــد لـــدول العالم الثالث التى لن تكون مضطرة فى تطويرها إلى الالتزام الأعمى بنمط مجتمعات الحضارة الصناعية.
- زيـــادة حجـــم الإنتاج الذى يقوم به المنتج لكى يستهلكه وليس لتقديمه إلى الأسواق للمبادلة وسيساعد هذا على انتهاء السيطرة الحالية للسوق على حياة البشر.
- انحسار سلطة الدول .

ويسوق آخرون خصائص الموجة الثالثة التى نوجزها فيما يلى([2]) : -

- المركزية الشديدة . - فلسفة السعى نحو الحدود القصوى فى كل شئ .
- التزامن . - التوحيد القياسى أو النمطية .

بهـــذا الاســـتعراض لموجـــات المـــد الحضـــارى المتصادمة نجد كيف يستمد الاســـتعمار أسلوب عمله الجديد على حسب نمط الحاضرة السائد فأحياناً غزواً وأحياناً أخـــرى هيمـــنة ثـــم مع موجة المد الثالثة سوف يتغير المفهوم إلى شكل جديد اقترحه الكاتـــب وهو الإسقاط الثقافى والذى سوف يتم تناوله فيما بعد ورغم رؤية البعض بأن الحضارة الجديدة "سوف تكون عكس الحضارة الصناعية لا تؤمن بالقوالب النمطية مما يتـــيح للشـــعوب النامـــية أن تبـــنى كيانها دون أن تضطر إلى إلغاء هويتها ومزاجها وعقائدهـــا الخاصة" ([3]) ومن خلال هذا التعارض بين ما تحدثه تلك الموجة القادمة من مؤثـــرات يبرهن على قدرة الأيديولوجيا القادمة فى محو الثوابت الثقافية والتعمية عما ينـــبغى التوجه إليه فى المتغيرات الثقافية وهذه أقصى مراحل الهيمنة الفيروسية للثقافة المهيمنة وهى حالة اللاوعى .

- **الاختراق الثقافى.**

بعـــد انسحاب الشيوعية كمعسكر وأيضاً كأيديولوجيا من الميدان وانفراد الغرب بقـــيادة العالم فإن الاستقلال السياسى والثقافى والأيديولوجى الذى كانت تمارسه بعض بلـــدان العـــالم الثالث – ومنها الدول العربية – لم يعد سنداً يستند إليه فأصبحت العلاقة

---

(١) راجى عنايت : (مرجع سابق) ، ص ص ١١-١٢.

(٢)راجى عنايت : العالم سنة ٢٠٠٠ ، *سلسلة أغرب من الخيال* ، (القاهرة ، دار الشروق ، ط(٤)، ١٩٩٥م)، ص ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) راجى عنايت : ثورة حضارية زاحفة ، (مرجع سابق) ، ص ٧ .

السياسية والثقافية والأيديولوجية المتاحة مع الخارج وحيدة الاتجاه والتى يمكن تسميتها- بالعلاقة العامة -مع المركز بعلاقة التبعية وما عدا تلك العلاقة فهى حصار كلى أو جزئى - العراق وليبيا - وبالتالى تحول الاستتباع إلى الاختراق فتحولت التبعية الثقافية إلى عملية تكريس وترسيخ لثقافة الاختراق (١) .

هذا ويذهب الكاتب إلى أن ما يسمى هيمنة لم يعد يناسب ما أسفر عنه العلم كأيديولوجيا شهدت ثورة انشطارية لا يعلم مداها إلا الله عز وجل وكذا مفهوم الاختراق لأنه يوحى بأن هناك حصوناً وموانع تحول دون المرور وأداء مهامها التى أوكلتها لها أيديولوجيا المركز - الغرب - حيث صار العالم ليس قرية إلكترونية ولا كوخاً إلكترونياً ولكن عقلاً إلكترونياً فكيف إذا أن نسمى الأهداف الاستعمارية بالهيمنة أو الغزو أو الاختراق فكلها مصطلحات قوضتها تصادم الموجة الثالثة مع الموجة الصناعية الثانية تصادم موجة المنتهلك مع موجة المنتج الذى يتبادل إنتاجه مع المستهلك فى الأسواق بيد أن ما أسماه المفكرون المعاصرون بأن حضارة الموجة الثالثة حضارة المنتهلك يُعد شئ دون الواقع وبمثابة خيالات حالمة فكيف يحدث ذلك بعدما أصبحت العولمة أيديولوجية القطب الواحد والتى أصبحت لها السيادة من خلال الأسواق المفتوحة بواسطة الشركات Multi -international ذات الجنسيات المتعددة والتى تذوب سلطة الدول فأين إذن المستهلك - الفرد ينتج ليستهلك- هذا ويعد ما يقولونه اقتراحاً لمواجهة اقتصاديات السوق وسيطرتها ولكن لا يمكن تسميته نمطاً عاماً.

رابعاً :الإسقاط الثقافى :

إذا كان الاختراق الثقافى تمارسه على العالم - العرب وثقافتهم - ثقافتان متنافستان : الثقافة الأنجلو أمريكية والثقافة الفرنسية فإنه لابد من تبين أمرين هما : أن عنصر العلم والثقافة من مكونات الثقافة ولكن ليسوا من مكونات الاختراق بل أدوات للاختراق الثقافى وهذا يختلف عن الاختراق الذى مارسته الدول الاستعمارية فى القرن الماضى عن طريق البعثات التبشيرية والذى مهد إلى اختراق ثقافى من خلال غرس نظام تعليمى لنشر الثقافة المعادية فى دول العالم الثالث بعد حركة التحرر من الإمبريالية التى يجذب فيها المتبوع التابع والتبعية التى يتبع فيها التابع الذى يشعر بالعجز تجاه المتبوع وكلاهما-التبعية والإمبريالية - يستلزم الآخر وأخيراً ظهرت وسائل ووسائط اتصالية أخذت تغتال العالم وثقافاته بواسطة الاختراق الثقافى (٢) .

---

(١) محمد عابد الجبرى : "المسألة الثقافية" ، *سلسلة الثقافة القومية* ، (بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ج(٢٥) ، ١٩٩٤م) ، ص ص ١٧٣ -١٧٥ .

(٢) محمد عابد الجابرى : المسألة الثقافية ، (مرجع سابق) ، ص ص ١٧٩-١٨١ .

هـذا وإن كان " ابن خلدون " قد ذهب فى مقدمته بأن المغلوب مولع أبداً باتباع الغالـب فهـذا وعـى مـن ابـن خلـدون إذ كان ذلك أثر من أثار ما بعد الاستعمار – الغـرب/العالم الثالث – فإن هذه العلة سرعان ما انتهت بسقوط حائط برلين والحرب الباردة وانهيار النظام الشيوعى إلا أنه من الطريف أن الرأسمالية رغم انتصارها على الشـيوعية تعـتمد الرأسـمالية فى شكلها الجديد تستخدم العولمة كأيديولوجيا اشتراكية بآليات رأسمالية .

الأمـر الذى يمهد إلى مفهوم الإسقاط الثقافى كبديل أيديولوجى وفكرى معاصر لمفاهـيم (الغـزو – الهيمـنة – الاخـتراق) إذ لم تعد حواجز مادية أمام التعاملات وأساليب وأنماط الحركة الدولية وعليه فإن الثقافة تنهمر علينا من السماء على رؤوسنا بالبروشـتات الإلكترونـية تدخـل بيوتنا وعقولنا من الهواء سواء شئنا أم لم نشأ سواء أغلقنا أجهزة الاستقبال أم لا فالأقمار الصناعية والإنترنت وشبكة الألياف فائقة السرعة المعـروفة بـثورة "الأنفوميـديا " والأطباق الهوائية كلها أدوات منهج استعمارى آلياته الإسقاط الثقافى .

هـذا وفى غضون ما تقدم تصبح الثقافة فى مواجهة أزمة تحتاج إلى تشاركية لقطاعـات العمل المختلفة بالمجتمع لوضع استراتيجية للتعامل مع هذا المنحى الخطير تبدأ من فكر واقعى يستلهم أصوله من ثوابت الثقافة وتجارب وخبرات التراث الإنسانى ولديـنا الـتجربة اليابانـية والتى قمت بترجمتها بعنوان التكنولوجيا الغربية والروح اليابانـية والـتى كشـفت لى عن اعتماد اليابان على استقدام الخبرات التكنولوجية من فرنسا – الغرب – فى الوقت الذى كانت مصر تستعير تلك التكنولوجيا من فرنسا سنة (١٨٠٥م) إلا أن الـيابان تقدمـت ونحن تخلفنا لأنها – أى اليابان – أخذت التكنولوجيا دون أيديولوجـيا أو الشخصية القومية الغربية دون الفكر الغربى فحافظت على هويتها وجعلت لها –أى التكنولوجيا الغربية– روحاً يابانية .

فالإسـقاط الـثقافى أصبح يصاحب السلع التى تروج لها العولمة فى الأسواق الإلكترونـية ليس فقط بل يبيعون تلك الثقافة المصاحبة ويجعلون لها معايير فى التداول بعدما تأكدوا أن العالم أدمن مادتهم وأنماطهم الإعلامية حتى بات يتألم عندما تغيب عنه وأصبح يلح فى طلبها حيث تكون تلك الثقافة فى وضع ما بين عينيه وأذنيه ولا يستطيع أن يـتلقاها دون أن يسـتخدم الوسـائط التكنولوجـية التى تروج لتلك الثقافة والثقافة التكنولوجية .

وسـوف يتم تناول آليات هذا الإسقاط الثقافى فيما بعد فى فصل التحديات ، هذا ولا يعـنى مـا سـبق فناء مفهوم (الغزو – الهيمنة – الاختراق) ولكن تكون السيادة لمفهوم الموجة الجديدة وهو الإسقاط الثقافى مع وجود حالات فردية سياسية واقتصادية

وثقافية وأسرية عالمية تعكس المفاهيم المندثرة والتى تتجلى فيما أثير حول قضية تأجير الأرحام مؤخراً كما يلى :-

بـــادئ ذى بـــدء أصلى وأسلم على الرسول الحبيب ﷺ الشفيع وأحمد الله على إهدائـــه لـــنا النـــبى الأمى محمد رسول الله ﷺ أقول وبالله التوفيق فى قضية تطوع أو تأجـــير رحم أم لإنبات فيه جنين لرجل وامرأة آخرين ، إن هذا الأمر يعترضه عقبات عديـــدة لم يتطرق إليها الدكتور " بيومى " ولا مجموعة النقاش فى برنامج بدون رقابة فى أبريل ٢٠٠١م : -

أولاً : قضية شرعية تأجير الأرحام :

مفهوم الزنا هو دخول منى الرجل إلى رحم المرأة فى حالة جماع جنسى غير شـــرعى أو جمـــاع جنسى فقط دون نزول ماء الرجل أو معاشرة جنسية بأى شكل من الأشـــكال فى غياب الشروط المشَّرعة ، وهذا هو الزنا الأكبر إلا أن هناك زنا أصغر كما روى الإمام الترمزى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: " كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت ومرت بالمجلس فهى زانية زانية زانية " صدق الرســـول الكريم ﷺ وهنا التحريم بالزنا واضح حيث تثير المرأة بعطرها شهوة وغرائز الـــرجال فهـــو فـــى رأيى زنا أصغر فهو يمهد للجماع الجنسى غير الشرعى فإذا كان الرســـول ﷺ يطلـــق عليه زنا فما بالنا إذا بالجماع الجنسى غير الشرعى الذى يتم فى شكل علمى معاصر – أى يجدون له مبرراً علمياً لجعل الباطل حقاً "تأجير الأرحام" – بـــيد أن نقـــل بويضة مخصبة من حيوان منوى لرجل مرتبط بامرأة شرعياً يؤخذ منها بويضة تُلقح بهذا الحيوان المنوى فى الخارج ثم تنقل إلى رحم امرأة أجنبية عن الرجل وزوجته فهذا فى رأيى وبالله التوفيق ليس زنا فقط لكون الجنين ناشئ عن حيوان منوى لـــرجل أجنـــبى بـــل يُعد سحاقاً معاصراً فالسحاق المحرم فى الأزمنة الغابرة كانت لا تســـتطيع فيه إدخال المرأة مائها داخل رحم المرأة الأخرى أما العلم الآن بما وصل إليه من ثورات تقنية فى ميدان العلوم الطبيعية والامبريقية يعطى رخصة لمثل هذا السحاق ليـــتم على أعين وبصيرة وتحت مباركة الجميع بأدواته – أى العلم – المعاصرة ولعل قـــول " أينشتين " عجيب أمر العلم هذا فى زمن الحرب يزقنا ويلات الدمار والألم وفى زمـــن الســـلم يجعل حياتنا قلقة ومتوترة ولعل نبوءات العالم الفيزيائى "هرمان كاهن" بـــنهاية النوع البشرى بوصفه إنساناً عارفاً وظهور نوع جديد يكون هو نفسه من خلق الفاعلية البشرية كل ذلك يؤكد على خطورة تطبيقات العلم .

ثانياً : قضايا أخلاقية :

هـــذا ويقول "سكنر" نحن لم نر بعد ما يمكن أن يصنعه الإنسان بأخيه الإنسان هذه المقولة كانت بمثابة ناقوس الخطر تحمل وتعكس الطموح وما يكتنفه من مخاطر .

. . كمـــا عـــارض مؤتمر "جوردن" بالولايات المتحدة سنة (١٩٧٣م) أبحاث الوراثة المعاصرة لما تحمله من أخطار على الإنسان التى ما قامت إلا على القيم ويشهد بذلك "ابـــن خلـــدون" الـــذى عـــاش مـــا بين (١٣٣٢م – ١٤٠٦م) بأن الأمم تنهار بانحلال أخلاقـــياتها وتحـــل محلهـــا حضـــارات أخرى كل ذلك بسبب انغماسها فى الانهيالات الأخلاقية .

وعلـــيه فـــإن المعضلة والعقبة الأخرى كيف نضمن أن الطبيب سوف يستخدم منى الرجل مع بويضة زوجته بعدما كشف النقاب فى أمريكا مؤخراً عن طبيب أجرى آلاف الـــولادات الأنبوبـــية باســـتخدام منيه وإبادة منى الرجل المتزوج بالمرأة صاحبة البويضـــة وقـــد أذيـــع ذلـــك الخبر منذ عامين على شاشات التلفاز المصرى ثم أتسائل وأخـــص الدكتور " عبد المعطى بيومى " هل تأمن ذلك لابنتك أو لنفسك أن تضع منيك وبويضـــات زوجتك لطبيب يجلس بنفسه فى المعمل ليخضع لهلوسة الشيطان فإذا كانت الأعضاء التناسلية عورة فى المرأة والرجل فمن باب أولى أن يكون ما يحفظ فيهما أشد عورة وحراماً .

هـــذا وقد ولدت أول طفلة أنابيب سنة (١٩٧٨م) بإنجلترا وقد نادى الكثيرين بتأســـيس تشريع جديد لإخضاع كل من بحوث وخدمات تكنولوجيا الإخصاب الصناعى لـــرقابة حكومـــية فمـــا بالنا بالمسلمين إذا كان هذا هو شأن الدول المادية القائمة على المذاهـــب التجريبـــية النفعية العلمانية مسيحيا ومن الطريف أن الحكومة البريطانية لم تسند البت فى ذلك لطبيب أو محامى متخصص بل أسندته إلى أستاذة فلسفة فى ميدان الأخـــلاق عمومـــاً والأخلاق الوجودية خاصة ، وعليه ينبغى مثل هذه الأمور لا يترك فيها البت إلى أشخاص تدفعهم أهوائهم إلى إرداء المجتمع مواضع المهالك .

ثالثاً : قضايا علمية :

الأمـــر الـــذى دفع عالم الحياة الفرنسى " رينيه دوبر" إلى القول بأن العلم يهتم الـــيوم بـــتهديم القـــيم الأخلاقـــية والدينية والفلسفية دون أن يجد بدائل لها توجه سلوك الإنسان وتأخذ فى الاعتبار العلاقة بين منجزات الثورة البيولوجية وقانون المجتمع .

إلـــى هـــنا نلخـــص معضلات إيداع أجنة فى رحم امرأة أجنبية أو امرأة بنكية للأجنة أو امرأة تمثل مزرعة لتربية الأجنة أى تسمية من تلك يمكن أن تسرى على تلك المرأة التى تعتبر زانية وفق مؤشرات (القرآن والسنة والمنطق) بإدخال منى وبويضة رجـــل وامرأة أخرى وأيضاً ممارسة السحاق حيث ملامسة الرجل يعد حرمانية لامرأة أجنبـــية أم إدخال جزء من هذا الرجل فى رحمها فى رأيى يكون زنا بعينه ، فإذا كانت المخـــدرات والأفيون والحشيش مدمرة للإنسان ويعاقب عليها القانون بالإعدام للاتجار بهـــا فـــإن الذى يذرع الخشخاش أو أنثى نبات القنب الهندى يسرى عليه حكم الإعدام رغـــم أن النـــبات مرحلة أولى فى طريق تخليق المخدر وعليه فإذا كان إدخال حيوان

مـــنوى غـــير شرعى لجوف امرأة أجنبية يعد زنا فإن إدخال مركب من حيوان منوى وبويضة يعد زنا وإلا كان الأفيون الناجم عن زراعة النبات – أنثى نبات القنب – غير محرم ، وعلينا إذاً بنشره واستيراده من الخارج وتوزيعه على البطائق التموينية !!

هـــذا ولنا أن نتخيل شكل القضايا التى سوف يواجهها القضاه فى المحاكم عندما تُطلـــق الأيـــادى للعبث فى مثل تلك الأمور والتى سوف تؤدى بالمشرع الوضعى إلى صـــياغة قوانين تغوص بنا فى العديد من المشاكل والقضايا الميراثية ، فلو سلمنا جدلاً بجـــواز ذلك الأمر فالأم التى تحمل بالجنين لها حق فى الجنين لأنها حملت وعانت فيه وله حق ميراثها حيث قال الله " وحمله وفطامه ثلاثون شهراً " وأقسم بالله أن هذا الأمر سوف يقودنا إلى جدال لا يعلم مداه إلا الله ، فبحكم تلك الآية يكون الولد من حق التى ولدتـــه ثـــم هل يتزوج بنت المرأة التى ولدته بالإيجار أم لا كما أؤكد أنه لا يوجد أى تشـــابه بيـــن ذلك الأمر والرضاعة لغير الأم الأصلية فالرضاعة أمر عابر أما الحمل والـــولادة أمراً يختلف وهناك قضايا كثيرة تحتاج إلى عشرات المقالات والتى رفضت نشرها الأخبار والأهرام .

تأجـــير الأرحـــام بحكـــم فتوى الدكتور " بيومى " يوقع المجتمع فى استحلال محرمات حرمها الذكر الحكيم كأن تتطوع أخت المدام لإنجاب طفل لأختها وبذلك تكون هـــناك جرائم بثلاث رتب فى الحرمانية أولهما زنا مع رجل هى محرمة أصلا عليه ، ســـحاق مع أخت لها محرمة عليها أو على غيرها شرعاً ، زنا لرجل مع امرأة لا يحل له الارتباط بها شرعاً إلا بوفاة أختها المتزوجة بذلك الرجل .

محمد كتش

خامساً : ثقافة + حضارة = مدنية :

يعـــرف فـــرويد الحضارة بأنها مجموع الأفعال والمؤسسات التى تبتعد حياتنا بواســـطتها عـــن أســـلافنا من الحيوانات والتى تخدم غايتين الأولى حماية الإنسان من الطبـــيعة وتنظـــيم علاقـــات الـــناس التى ينشأ فيما بينهم قلق فى الحضارة فالعلاقات العموديـــة مـــع الطبيعة تثنى إذن العلاقة القائمة بين الناس لتحدد الواقعة الحضارية فى شموليتها(١) .

ويرى " ألفرير فيبر " أن الحضارة هى جملة المعارف النظرية والتطبيقية غير الشخصـــية والـــتى يُعترف بصلاحيتها وتناقلها على المستوى الإنسانى بينما الثقافة هى

---

(١) بـــول ثـــوران أســـون : " وظائف الثقافة " ،ترجمة عبد السلام بنعبد العالى ، *سلسلة دفاتر فلسفية* ، (الدار البيضاء ، دار توبقال للنشر ، ع(٢) ، ١٩٩٦م) ، ص ٥٧ .

جملة العناصر الروحية والمشاعر والمثل المشتركة التى ترتبط فى خصوصيتها بمجموعة بشرية فى مجتمع معين ... ويقلب البعض تلك المقابلة بأن تصبح الثقافة جملة الوسائل الجماعية المستعملة فى التغلب على الوسط الطبيعى (العمران والتكنولوجيا) وتصبح الحضارة جملة الوسائل التى يستعملها الإنسان للسيطرة على ذاته ولتطوير نفسه روحياً وفكرياً . . . وعليه تصبح الحضارة هى الانتفاع المباشر بمعطيات البيئة من حيوان ونبات وأنهار والذى يتم – أى العمل الحضارى – على وجوه مختلفة كما تقوم المدنية على تأليف وتركيب المعطيات المادية للبيئة فى صورة جديدة فهى عملية تحويل تقوم كما فى حالة القوانين العلمية على قواعد موضوعية يرتبط فيها الشيء بوظيفته ارتباطاً عملياً وثيقاً (١) .

هذا ونجد مفهوم "فرويد" عن الحضارة مفهوماً غير واع ينم عن جهل بطبيعة الحضارة التى لا يمكن أن ينتجها سوى العقل الإنسانى حيث يجعل بدايتها الحيوان وهذا يتناقض مع البناءات العقلية المنطقية للحضارة .

سادساً : نهاية العلم :

إنا التاريخ الحقيقى للعلم كان مع ولادة المنهج التجريبى على يد كل من (بيكون ، لوك ، ميل ، هيوم) وقد تطور إلى المنهج الاستنباطى الفرضى الحالى ولعل هذا التطور الذى بدأ منذ القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين يكون مبرراً لتطور العلم ، ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك ، وهو أن العلم أصبح يافعاً ثم شاخ ليترك الخلافة لأولاده وهى ميادين التكنولوجيا المختلفة .

هذا ولقد سجل التاريخ بحروف من نور جهود علماء بارزين كانت لجهودهم دوراً كان يمكن أن يسبب غيابهم تأخر الحضارة البشرية إلى وقت لا يعلمه إلا الله ، فجهود " واطسون " و " كريك " فى البيولوجيا الجزيئية وكذا " ماكس بلانك " فى الفيزياء و " اينشتين " فى النسبية وأيضاً " رازر فورد " و " طومسون " فى الكيمياء كانت لها عظيم الأثر فى الانتقال بالعلم من مرحلة إلى أخرى حتى وصل إلى مرحلة أصبحت المبادرة فيها لإنتاج العلم وهو التكنولوجيا وتراجع العلم .

إذاً العلم منذ بدايته شأنه شأن أى شئ يحمل بداخله بذور الجديد والمعاصر الذى يحوى البداية الأصيلة – يحمل بداخله بذور ذلك الأصل – فى حين ما يحدث فى التكنولوجيا ليس كذلك بل تتقدم التكنولوجيا من خلال الفكرة الخلاقة المبدعة دون أى اعتبار للتراث التكنولوجى أو العلمى ، حيث يعتمد التقدم على ذلك دون وجود أى بذور لجديد بداخل القديم ، ومن ثم فإن المنهج الملائم لعصر التكنولوجيا هو Byond method (meta-physics) فى التفكير فقط أما منهج التكنولوجيا هو الآداة والذى

---

(١) شبل بدران ، أحمد فاروق محفوظ : أسس التربية ، (مرجع سابق) ، ص ص ٩٩-١٠١ .

يـتحقق بالاتصـال الكشـفى المباشر ، وبذلك يقتصر المنهج المذكور آنفاً على البدعة والفكرة دون أى إجراءات أو خطوات ؛ فقط التفكير .

هذا ويعد منهج العلم والعلم ذاته من بقايا الألفية السابقة وحق علينا أن نضعهم فى متحف بجوار كثير من الأعمال و الإنجازات التى مر بها التاريخ البشرى ، ومن ثم ينتهى العلم لترتاد التكنولوجيا دورها فى نقل البشرية إلى مستوى حضارى جديد فلنقل وداعـاً لحضـارة العلـم ومرحـباً لحضـارة التكنولوجيا حضارة لا يعتمد فيها التقدم التكـنولوجى على منهج أو إجراءات منهجية أو التراكم أو بذور الجديد فى التكنولوجيا الـتى تهيمـن على القديم بل هى البدعة وشئ من الثورة التى ليس لها دور كبير لأن الـثورة لحظـية تتم فى ثوان معدودة التى تأتى غيرها فى ثوان أخرى حيث كلما تقدم الزمن كلما قلت فتر عمر النصف لأى ثورة ، فنحن نعيش حقبة لا يعلم الله إلا مداها .

ولعـل مـا تقدم يوضح شيئاً ، أنه إذا كان العلم فى الألفية الأولى أسهم بشكل كبير فى تنمية وإكساب المخلوق البشرى خاصية الإنسانية حيث فى نهاية حقبة العلم بدأ العلـم يسـلب الإنسـان إنسانيته بل سوف يزداد شدة فى حقبة التكنولوجيا بيد أن حالة ولادة عصـر التكنولوجيا التى كانت فى نهاية حقبة العلم تعد تعبيراً عن سلب الإنسانية كصـفة طبعت الإنسان ككائن مفكر ومبدع ، فالإنسان سوف يتراجع عن إنسانيته ويفقد لغـته مـن كـثرة صمته لإنه لن يجد وقتاً يتحدث فيه عن أو مع أبناء جنسه بل سوف يكون الحديث مع الجنس الهجن من الإنسان و الكمبيوتر الذى سيتحدث كثيراً .

سابعاً : التنوع الثقافى الإنسانى المبدع :

التنمـية البشـرية تنسب إلى الكائن البشرى الفرد وهو الغاية القصوى للتنمية والـثقافة والـتى توضـح كيف ينتمى الناس إلى الطبيعة وبيئتهم والأرض والكون ... وبالـتالى فـإن كـل أشكال التنمية بما فيها التنمية البشرية تحددها فى نهاية المطاف عوامـل ثقافـية .. إذن الـثقافة ليست وسيلة إلى تقدم مادى وإنها غاية وهدف للتنمية باعتـبارها ازدهار للوجود الآدمى بكل أشكاله باعتباره وحدة متكاملة ... لذا يجب أن يكـون المبدأ الأساسى هو تشجيع احترام الثقافات التى تتسامح قيمها مع سائر الثقافات والاحترام يتبع التسامح ويتضمن موقفاً إيجابياً حيال سائر الناس وترحيباً بثقافتهم .

هذا وتعتمد التنمية البشرية على السلام الاجتماعى وهو بدوره يتطلب أن ينظر إلى الفروق بين الثقافات لا على أنها شئ غريب غير مقبول أو مكروه ولكن على أنها

تجـــارب فـــى أساليب التعايش تحتوى على دروس قيمة ومعلومات للكافة والمزيد منها يفوق المواقف (١).

وبالتدقـــيق فى تعريف الإبداع أو الابتداع لغويا نجد أن إيجاد شئ غير مسبوق بمكـــان ولا زمـــان أى مـــا يطرأ على الوجود بغير مثال سابق . . . والمبدع فرد لا يخـــتلف فـــى طبيعـــته ونوعيـــته عن الآخرين بل يختلف من حيث مقدار الخصائص والقـــدرات الدالـــةعلى الابـــتكار والتجديد ، ويرى البعض أن الشخصية المبدعة ذات صفات عديدة بعضها تعليمى وبعضها انفعالى ، وهى(٢):-

- الطلاقة الفكرية Ideation Fluency وتتضمن القدرة على إنتاج أكبر قدر ممكن مـــن الأفكـــار عـــن موضوع معين فى وحدة زمنية ثابتة كما تشتمل على الطلاقة الترابطية Assciatlonal وهى القدرة على إيجاد الترابط بين ما ينتجه من أفكار .
- الفضول المعرفى والأمانة الفكرية .
- المرونة الفكرية أى القدرة على تغيير الحالة الذهنية والأفكار كلما تغير الموقف .
- الأصـــالة أى القـــدرة علـــى إنتاج الحلول الجيدة والجديدة ، ومن الطريف أن نجد المبدع لا يكرر أفكار الآخرين بل نزاعا إلى الجديد والتجديد ..
- الإيمان العميق بعلاقة العلة والمعلول ..
- الصبر والدأب والمثابرة مع رغبة باطنية لنيل اعتراف وتقدير مجتمعه المتخصص أو العام .
- يبدو له كل شئ لافتا للنظر .
- الميل إلى الدعابة والفكاهة والظرف .

الأمر الذى يحتاج منا إلى تدقيق فى نوعية الثقافة وتنوعها التى تقدم إلى النشء فالكـــيف المتناســـق مع الكم يؤدى إلى نقلة كيفية – إبداع – سواء أدبى أو مادى يثرى الثقافة والتكنولوجيا فتنمو الحضارة لذا لابد من أن تقدم الثقافة للإنسان فى أبعاد متعددة وليســـت فـــى بعـــد أحادي فيؤثر ذلك على الأفراد فيصبح لدينا مجتمعات عربية ذات

---

(١) خافيـــر بيريزدى كويلار وآخرون : *التنوع الإنسانى المبدع* ، (القاهرة ، مركز مطبوعات اليونسكو، تقرير اللجنة المعنية بالثقافة والتنمية ،١٩٩٨م) ص ص٢٤-٢٥.

(٢) شوقى جلال : ثقافتنا والإبداع ، (مرجع سابق) ، ص ص ٣٩-٥٤.

تفكير تقاربى لا يُنجى الشخص على مستوى المشاكل التحتية والشخصية ، كما نشير إلى أهمية الإطلاع على الثقافات الأخرى واحترامها ليس لذاتها ولكن للإفادة منها وللمناظرة بينها والكشف عن عناصر التلاقح التى تمت بينها والتى بواسطته وصل إلى المستوى الثقافى الحالى ليس فقط بل تخلق لدى المثقف نوع من الوعى بحركية العناصر الثقافية وكيفية نشأتها والعوامل الكامنة ورائها هل هى حاجات اجتماعية أم علمية كل هذا يؤدى إلى الإبداع .

ثامناً : التربية والثقافة (اتصال أم انفصال) :-

يقول الكاتب الروائى الشهير "جيرم لورنس" أقول لكم تخلوا عن نماذج حياتكم إن لم تتغيروا فى كل يوم من أيامها تغيراً بالأخص يقوى مخيالتكم وكم تمنيت لو ذهبت ببعض أقربائى وأصدقائى خارج المدينة لاكتبهم وانقحهم من جديد كما يقول "كونفوشيوس" خذ حكمة القدماء وساير العصر بذا تغدوا معلماً لذا لابد وأن تكون التربية حوارية فى تناولها للثقافة حيث يُعد الحوار هو التغذية المرتدة بين النقد والإبداع.

هذا وتعتبر التربية إحدى القوى الفاعلة المؤثرة فى تغيير المجتمع وكذلك الثقافة حيث يحوى التغيير الثقافى بداخله التغيير الاجتماعى والعلاقة بينهما جدلية وتبادلية عندما يصل التجديد الثقافى فى تراكماته إلى درجات فعالة فإنه يحدث تغييراً اجتماعياً والتغيير الاجتماعى تعبير ثقافى عن علاقات وأوضاع اجتماعية جديدة (١) .

وبالنظر إلى المجتمع نجد أن كلاهما فاعل ومنفعل بالآخر وبالتالى فإن ما ينتجه المجتمع من ثقافة يحتاج إلى مؤسسة مثل التربية لنقله والحفاظ عليه ومن ثم يحدث استثمار لطاقات الإنسان وإبداعاته وأن الاتصال بين التربية والثقافة ضرورة تاريخية للحفاظ على حياة الإنسان بالتوافق مع التغيرات وكل جديد فيكتسب تفرده بتفاعل المتغيرات مع سماته الشخصية لأن حياته فى الثقافة وأن التربية بمثابة الشريان من الدم والانفصال بين التربية والثقافة يؤدى حتماً إلى تخلف المجتمع والتجارب التاريخية كثيرة إذ فى الوقت التى تعجز فيه التربية عن الحفاظ على الثقافة وتناقلها وتنميتها يؤدى إلى ثبات المجتمع وهذا يتضح فى مجتمعات العالم الثالث ومنها المجتمعات العربية مما يؤدى إلى ما يسمى فى التاريخ الحضارى فترات التقهقر والركود .

ولعل ما يوجد من ازدواجية متوطنة فى العالم العربى بين ثقافتين يتمزق النشء تمزقاً كبيراً بينهما فهناك من ينادى باجترار الثقافة القديمة – أصالتنا – وهناك من ينادى بنبذ القديم والأخذ بثقافة الغرب لأن بها التقدم – الحداثة المعاصرة – مع العلم

---

(١) شبل بدران ، أحمد فاروق محفوظ : أسس التربية ، (مرجع سابق) ، ص ١١٥.

بـــأن الـــنماذج الصـــناعية الناجحة لدى الغرب والذى بدأ الغرب فى التخلى عنها الآن ليســـت بالضرورة تكون ناجحة وصالحة فى أوطان أخرى تختلف عن الأولى فى كل شـــئ(١) وهذا "سادلر" يقول فى عهد الاستعارة فى الأنظمة التعليمية لا يمكن أن نقطف زهرة من هنا وهناك ثم نغرسها فى تربة مغايرة ثم ننتظر منها النمو فهى – أى النظم الـــتربوية والاجتماعـــية – عبارة عن كائن حى اجتماعى يمثل عادات وتقاليد وأحداث تاريخـــية وحروب طويلة تعكس تنامى صيرورة الوعى الإنسانى فكيف إذن نضع تلك النظم أو الثقافات فى دول أخرى ونتمنى منها أن تأتى بنفس الثمار .

إذن التربـــية يعـــول عليها الانفصال والتواصل التاريخى والثقافى والحضارى والارتقـــاء بالبنـــية الاجتماعية والعقلية لأمة ما وإذا ما تتبعنا بالدراسة والبحث للأبعاد الاجتماعية ، السياسية ،الاقتصادية ، الثقافية، الصحية ، الدينية ، التربوية ، الفكرية ... الـــخ ، نســـتطيع أن نســـتبين الطريق إلى الكيف – الثقافة – فى التراث ونتعرف على لحظـــات التقدم والتقهقر فى حياة المجتمع وكذا التعرف على المتغير التابع للكيف وهو الكم وبالتالى نستلهم من التاريخ الدروس المفيدة ،هذا من ناحية كما أنه لابد من الوعى فـــى المجتمعات العربية بخطورة تسرب مثل تلك الأبعاد الوافدة من ثقافات ومجتمعات أخرى فيما يعرف بالغزو والهيمنة والاختراق والإسقاط الثقافى ، ولا نضع أنفسنا تحت ضـــغط الانـــبهار بالنماذج الأجنبية ، إذ يشهد أحد مخرجات هذا النموذج التربوى وهو "لـــيفى– شتراوس" الذى يؤكد أن الفكر الغربى لا يعتبر قمة الإنجاز البشرى الوحيد ، كمـــا كـــان معـــتقداً من قبل" (٢) فلقد كان النموذج الإسلامى العربى أساساً أفضى إلى الـــنموذج الغربى حيث أكد المستشرق الألمانى "إدوارد ساخاو" أن أبا الريحان البيرونى كـــان أعظـــم عقلية عرفتها العصور الوسطى ويحق لنا اعتباره أعلى مد بلغته العقلية العلمـــية آنـــذاك ، كمـــا كان معنياً بالفلك والرياضيات والمباحث التجريبية قدر عنايته بالإنســـانيات والحضـــارات (٣) هكـــذا كان النموذج التربوى الثقافى الإسلامى العربى ويحق لنا أن نفخر بذلك فلو أمهلنا القدر قرن من الزمان قبل مجيء "روجر بيكون" فى القـــرن الثالـــث عشر لكنا الآن أصحاب النموذج الغربى ولكن بالطعم الإسلامى وليس المادى الوضعى .

---

(١) محمـــد عـــابد الجابرى : "التربية ومستقبل التحولات المجتمعية فى الوطن العربى" ، *سلسلة المجلة العربية للتربية* ، (تونس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، مج(١٧) ، ع (١) ، ١٩٩٧م) ، ص ١٣١ .

(٢) السـيد نفـادى : "اتجاهـات جديـدة فى فلسفة العلم" ، *سلسلة عالم الفكر* ، (الكويت ، المجلس الوطنى ، مج(٢٥) ، ع(٢) ، ١٩٩٦م) ، ص ١٠٥.

(٣) يمنى طريف الخولى : فلسفة العلم فى القرن العشرين ، سلسلة *عالم المعرفة* ، (الكويت ، المجلس الوطنى ، ع(١٦٤) ، ٢٠٠٠م) ، ص ٥٠.

هـذا وإذا مـا تطرقنا إلى نقاط التقاء التربية العربية بمنظومة الثقافة نجد أنها تشـتمل علـى فكـر التربـية ، لغة التربية ، تربية أهل التربية ، قيم التربية وصلتها بمنظومة المعتقدات ، إبداع التربية ... فنجاح التربية العربية رُهن بمدى تفهمها للعلاقة الـتربوية والثقافية وخاصة فى ضوء محورية الثقافة فى عملية التنمية المجتمعية وكون التربـية قد أصبحت مرادف للتنمية فى عصر المعلومات وقد عزا كثيرون فشل التربية فـى الماضـى إلـى إغفال العلاقة بينهما وبين الثقافة ولعدم الدراسة التاريخية لتطور التربـية مـع تطـور المجتمع وتغير ثقافته (١) خاصة بعدما تحولت مفهوم الحاجة أم الاخـتراع إلـى مفهـوم الاخـتراع أم الحاجة وظهور أنماط جديدة للثقافة منها ثقافة المعلومـات فنحن نعيش اقتصاد المعرفة وهو اقتصاد بلا وزنا ويؤكد "أدم سميث" أحد علمـاء الاقتصـاد العالمى بأن المعرفة هى أكثر أدوات الإنتاج قوة ويقول "بيكون" أن المعرفة قوة لذا فإن هناك حاجة إلى إعادة هيكلة الماهية الثقافية العربية فى ضوء فكر إسلامى واعى بمتغيرات الواقع .

تاسعاً : ابن خلدون بين الجهل بالأصالة واتهامات الحداثة .

اعتدنا على احتدام الصراع غير الجدلى – أى الجدال – حول التراث وعلى حد القـول بين الأصالة والمعاصرة – يُقصد الصراع – وأن البعض ذهب إلى الدعوة إلى الأصالة بعصبية والبعض الآخر تشبسوا بالمعاصرة متهماً الفريق الأول الثانى بالإلحاد والتبعـية وكذا متهماً الفريق الثانى الفريق الأول بالتخلف مما دعى فريق ثالث للتدخل ووقـف موقفاً محايد توفيقى يجد صدى لدى الجمهور وأيضاً للتخفيف من حدة الخلاف والـنزاع ورغبة لتضييق هوة الجدال إلا أن سعى وجهد هؤلاء جميعاً لم يحقق الهدف الأسـمى مـنه وهو تحويل التراث إلى نمط جديد فى شكله وجوهره – أى يأخذ موقع المدنـية فالحضـارة تصبح مدنية التى تتحول فى بوتقة الحوار "الاجتماعى التاريخى " إلـى حضارة جديدة – بل ذهب كل ذلك أدراج الرياح وبذلك يكون الخلاف دائماً حول الشـكل وليس حول المضمون خلافاً بين أصول متعددة وليس بين فروع الأصل الواحد رغم التكامل بينهم – أى الشكل والمضمون – من شأنه أن يؤدى بالسطحية والسفسطة إلـى مـثواها الأخير وخاصة فى معالجة قضايا التراث التى عادة ما تبدأ بتوضيح كنه كلمـة " تـراث " الـذى ذهـب عدد من الباحثين على أنها إنجازات الماضى كله بكل عناصـره ومحـاوره الدينية والروحية والوجدانية والعلمية والأدبية والفنية والسلطوية والإدارية .. . الخ .

إلا أن القطبـية التراثية لها وجه آخر يدور الخلاف حوله من حيث وجوده فهل هو تراث فى ذاته ؟ أم أنه تراث لذاته ؟ فالخيار الأول يعنى أن التراث موجود ومحقق

---

(١) نبـيل علـى : الـثقافة العربـية وعصر المعلومات ، *سلسلة عالم المعرفة* ، (الكويت ، المجلس الوطنى ، ع(٢٦٥) ، ٢٠٠١م) ، ص ٣٢٢.

بغـير تدخـل الإنسـان فيه فهو سابق عليه والخيار الثانى يعنى أنه لا يكون تراث إلا بـإدراك الإنسـان لـه ، وهذا لا ينكر الأول غير أن تحققه فى ذاته مشروط بمعرفة وإدراك الإنسـان لـه الأمـر الذى جعل الموقف من التراث هو فى الحقيقة موقف من الحاضـر وهـذا يجعل البحث عن كيفية التعامل مع التراث أمرا ضروريا حيث يرى البعض أن هناك أنواعا من التراث وأنه ليس تراثا واحدا على نطاق الأمة الواحدة مما حفز البعض على الانطلاق فى دراسة التراث من خلال رؤى أيديولوجية حيث منهم ما يعـتمد علـى العقلانـية النقدية العلمية التاريخية كمرتكز منهجى ومنهم من يستند فى معالجـته علـى الإطـلاق الإيمانى وآخرون اتخذوا موقفا سلبيا أكثر منه إيجابيا وهو الموقف التوفيقى مما أدى إلى مزيدا من التمزق والضياع وأيضا الخروج عن المسار الطبـيعى لتناوله – أى التراث – وجعل الأزمة تأخذ منعطفا جديدا بالغ الخطورة وهو الصراع بين أصالة عربية ومعاصرة غربية من ناحية وأصالة غربية ومعاصرة غربية من ناحية أخرى .

هـذا ما دعى الكاتب أن يتخذ من خلال أطروحته الجديدة مسارا تنويريا جديدا وكـذا أسـلوب معاصر لتناول التراث بعيدا عن الرؤى المنهجية المتعصبة انطلاقا من كونـه – أى الـتراث – نتاج لظواهر سيسيولوجية فى الحاضر تصبح متغيرا مستقلا لمتغير تابع فى الماضى وهو التاريخ وبالتالى بالقياس على مفاهيم الرياضيات بوصفها أكـثر العلـوم صـورية يصبح لدينا محورين للتغير – السينى والصادى – فلكل تغير اجـتماعى سـينى يتبعه تغير تاريخى صادى بمعنى أن الظاهرة التاريخية نتاج ظاهرة اجتماعـية وأن الحدث الاجتماعى بمجرد وقوعه يصبح تاريخا الذى ما يلبث أن يصبح اجتماعـيا مرة أخرى فى شكل لا نهائى من التحولات (حضارية – مدنية) ،(مدنية – حضارية) ، (حضارية – مدنية)

(١) (١) (٢) (٢) (٢)

وهكـذا فحضارة الأمس واليوم والعكس فكل منهم يستلزم النقص لتلك الأخرى فهكـذا الأصـالة والمعاصرة حيث التراث من خلال رؤى أيديولوجية يُعد أمرا خاطئا وغـير موضوعى فينبغى أن ننطلق فى الدراسة من خلال الاستناد إلى المقولة التالية : دراسـة المحسوس تتطلب التجرد من المحسوس " بمعنى لابد من الخروج من التراث حال دراسته لتمثل الموضوعية وبعيدا عن اعتناق أى رؤى أيديولوجية فهذه واحدة وأن التراث ليس أنواع عديدة ولكنه واحد فى الأمة الواحدة بيد أن يكون ذو مستويات عديدة لـيس للأمـة الواحدة ولكن التراث واحد فى جميع أنحاء العالم عبر الصيرورة الزمنية الـتى تنـتقل به من مستوى فى حضارة ما إلى مستوى حضارى آخر فى أمة أخرى وهـذه الثانـية كمـا ينـبغى أن يكون الاحتكاك فى دراسته – أى التراث– من خلال العقلانـية العلمية النقدية الجدلية كأداة تجريدية تحميه من الزلق وهذه الثالثة أما الرابعة فلابـد من تناوله فى سياق واحد يجمع بين العوامل البيولوجية والتاريخية بما فيهم من

عوامـــل فرعية أخرى أخذا فى الاعتبار مقولة "ديكارت" خير لك أن تعدل عن التماس الحقيقة إذا لم يكن ذلك بغير منهج " الأمر الذى يقودنا إلى أسلوب جديد لدراسة التراث المفـــتوح وهو استخدام فريق بحث تجمعهم كتيبة للشراكة ينبغى أن تكون ذات مداخل تعـــبر عـــن مناهج عديدة تبدأ بالوصف ثم التحليل ثم النقد للأنا – التراث – من موقع الآخـــر بعـــيداً عن أى اعتناقات إذا فالتراث يمكن إجلاء مفهومه بأنه جملة إفرازات العقـــل الإنسانى من فكر واتجاهات تترجم إلى سلوك فاعل فى حياة المجتمع سواء كان ماديـــاً وكيفـــياً والذى يرقى به صيرورة العقل الإنسانى كدالة فيما يطرأ من متغيرات تـــرقى بالـــتراث إلـــى مستوى تقدمى جديد ، وهكذا لا يمـــوت الرجل المريض – أى التراث – الذى ضل طريق علاجه من خلال التشخيص والتناول غير الصحيح أو إن صح القول المرض فينا هو الذى أصاب التراث .

إن غـــياب الوعـــى بمعالجة التراث سمة صُبغت بها العقول العربية المعاصرة وهذا يرجع إلى تغييب العوامل السيسسيولوجية والتاريخية كمتغيران أو على حد القول المحـــددات لـــه – أى الـــتراث – وكذا يرجع لأزمة بين الذات والموضوع فى تناول الـــتراث لذاتـــه أو فـــى ذاته الأمر الذى شوه مسار الضرورة التاريخية وأحدث تثبيط لإفرازاتها وجعلها عقيمة يقتصر إنتاجها على إفراز حلقة دائرية مفرغة مما ولد حاجة ملحـــة لإزالـــة الـــتراب الذى غطى كل قيم وثمين من ماضينا الذى اتسم فى كثير من جوانـــبه بالإشـــراق والذى نهضت عليه أوربا بدءاً من القرن ١٦ ، ١٨ فلم يتعدى رد الفعـــل الكـــلام وكـــثرة التسويفات فقط بعد صمت اتسم بالسكون ليأخذ شكلاً جديداً من الصـــمت الاســـتاتيكى –رفضـــه ابن خلدون وأقره " دوركيم " فى علاجهما للظواهر الاجتماعـــية – ممـــا أدى ذلـــك إلى تعاقب فترات من الجمود تنتظر ولو فترة استقراء واحـــدة تضـــع التراث على مسرح العقل الجدلى ينتظمه قانون واحد وهو الديالكتيك ، الأمـــر الـــذى دعانى إلى استعراض بعض البحوث الذى قام بها أحد الباحثين من أبناء الـــتراث وهو "محروث بن أحمد غبان" وكيل كلية التربية بالمدينة المنورة جامعة الملك ابـــن عبد العزيز بعنوان " إسهامات" ابن خلدون فى التربية المقارنة " مبينا فيه أسبقية "ابـــن خلدون" المولود فى سنة ١٣٣٢م على "مارك أنطوان جوليان " رائد هذا العلم ، كمـــا هـــو شـــائع فى أول مقال صدر له فى سنة ١٨١٧م حيث كان البحث فى مجمله متواضـــعاً لا يرقى بدراسة تأصيلية مثل هذه ، تحتاج إلى نفاذ بصيرة وفهم لاستنطاق ظاهـــرة الدراســـة الـــذى ما قصد لكتابة علم الاجتماع ولكن فطن أن دراسة الظواهر الاجتماعية هى الطريق الوحيد لتصحيح أوضاع مناهج دراسة التاريخ .

وهـــنا نعـــرض إنصـــافاً جاء على لسان عالمى التربية المقارنة "سيثوزارت فريـــزر" و " وليم بريكمان" كأحد أبناء الحداثة فى قولهما : من الواضح أن هناك أحد الرواد المنسيين من قبل العلماء المعاصرين فى التربية المقارنة وهو المؤرخ المشهور " ابـــن خلـــدون " لذا نستعرض عنوان المقال الحالى بشكل نقدى مستعرضاً هذا البحث الـــذى أساء إلى التراث كشىء فى ذاته وبعيداً عن الذاتية وقد أصيب وقد أخطئ وليس

لخطئي عيباً ولكن سمة من سماتنا ولو خُيرنا بين النقص والكمال لاخترنا النقص لأنه سر بقائنا لأننا لو اكتملنا لفنينا وهذا الشكل من التناول هو منهج ينتظم عمليات الفكر كما أنه منهج كونى يحكم به المطلق – المبدأ الأول – أو العقل المفارق للطبيعة وسائر ظواهره ومخلوقاته ، ويمكن استعراض ذلك فيما يلى : –

أولا :اقتصرت الدراسات السابقة التى أوردها الباحث فى هذا البحث على شكل كتب وهنا خطأ بحثى ومنهجى مثل كتاب الموازنة فى أصول التربية المقارنة "لمحمد العرقسوسى" وكتاب الأيديولوجيا والتربية المقارنة "لعبد الغنى عبود" ودراسة بحثية تناولت ثلاثة كتب لكل من "ابن سحنون" ، "ابن مسكويه" ، " الغزالى" على الترتيب هى : آداب المعلمين ، تهذيب الأخلاق ، كتاب المعلم ، حيث يقول "ادورد بيبى " أن الباحث التربوى كلاعب الجولف الذى يضرب الكرة من حيث استقرت كذلك الباحث التربوى الذى يجب أن يبدأ من الواقع ومن حيث انتهى الآخرون وهذا قصوراً آخر كما اعتمد الباحث على القديم كلية مما يقود إلى الركود والتخلف على حد تعبير" فان دالين " ويبرز مدى الوعى الزائف الذى عاش فيه الباحث بالتراث .

ثانياً : وإذا ما انتقلنا إلى اتهامات الحداثة الممثلة فى علماء التربية المقارنة المحدثين والتى تبرز ضعف الباحث من ناحية وسوء فهم العلماء المعاصرين من ناحية أخرى وكلاهما يكشف عن الأمية بالتراث وقد اكتفى الباحث بالاتفاق معهم تبعية دون الاختلاف الذى هو شريطة الإبداع والتى يكمن إجمالها فيما يلى : –

١- اتهم العلماء المعاصرين " ابن خلدون " بأنه ألحق الظاهرة التربوية بالاجتماعية وطبق عليهم قانوناً واحداً وهذا اتهاماً فى غير محله لأن المستقرئ لتاريخ التربية فى الشعوب والمجتمعات القديمة يجد أن التربية مفرز من مفرزات المجتمع فلا تربية بدون مجتمع والعكس فيما وجهان لعملة واحدة وهى مصدر استمرارية الحياة ، ولقد أوضحت فلسفة John Dewey ذلك والتى وسعت الغرض من التربية من خلال :-

- جعل موضوعات التربية حقيقية مثل المواقف الحياتية .
- جعل مشاكل البيئة محوراً لدراسة المناهج فى المدارس .

٢- انتقدوه بأن ملاحظاته ونتائجه التى جاءت على شكل تعميمات أنها ليست إلا فرضيات لا تعد كونها تفسر حالات جزئية وأقول وبالله التوفيق أن "ابن خلدون" ما عمم إلا بناء على ما شاهده حيث أكد على اعتماده على الملاحظة الحسية وظهر ذلك جلياً فى الفصل المعنون باسم " فى تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية فى طرقه " فى مقدمته فهو رائد للواقعية ومن بين تعميماته

"أن العـرب أبعـد الـناس عن الصنائع" وهنا لم يخطئ فى تعميمه حيث شواهد العصر الحديث أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن العرب يستوردون نواتج البحث العلمى ولا يستوردون أدواته ومهاراته وعندما يقال : "أن العلماء أبعد البشر عن السياسـة" فلـم يخطـئ حيث لا يوجد ما يسمى عالماً خارج معمله حيث يحتاج الإنتاج العلمى للتفرغ هذه من ناحية كذلك تجربته الذاتية التى ساقها نتيجة خوضه غمار السياسة والتى انتهت بنفيه إلى "هنين" على يد أمير غرناطة وإيداعه السجن على يد سلطان المغرب حينئذ .

٣- كذلك اتهموه بأنه ذهب بعيداً فى تأثير العامل الجغرافى على حياة البشر إلى الحد الـذى يجعل الأقاليم المتطرفة كالحبشة وغيرها تؤثر فى أخلاق البشر وصفاتهم وأشـكالهم بدرجـة تجعلهم حيوانات وأن الدين لديهم غائب والعلم كذلك مجهول وهذا صحيح إذا ونحن فى هذا العصر ما زالت هناك ما يسمى بجزر أكلى لحوم البشـر وهذا كافياً للرد على منتقديه كما أنه يعتبر رائد للحتمية البيئية الجغرافية فقـد سـبق نـتائج العلم الحديث وعلماء البيئة المعاصرين فى دحض ما جاء به "جالـتون ، وجنينـيو " الذيـن أخرجوا أبحاث تؤكد موروثية الصفات الانفعالية والعاطفـية يظهـر فى إصدار "جالتون " لكتابه وراثة العبقرية (١٩١٦م) كما دحـض ما جاء به مؤسس علم الإجرام " سيزارى لمبوروزو " فى تحديد المجرم مـن خـلال علامات وصفات جسمية ووجهية وانتقالها بالوراثة ، فهو رائد فى أسـبقية دحض ذلك – بشأن الوراثة – وأن البيئة لها الكلمة الأخيرة وكذا إعجازاً كبيراً فقد انتقد ذلك قبل أن يولد العلماء الذين ابتدعوا ذلك .

٤- انـتقدوه بأنه يتناول الظاهرة التربوية كمياً إلا أن بعض المنصفين ذهبوا إلى أن الـدول لـم تكـن تهتم بالإحصاء بوجه عام حتى تهتم بالإحصاء التربوى بوجه خـاص وأقـول أن التربية فى عصره كانت تهتم بالنخبة وأن الإحصاء ليس من مميزاتها والذى بدأ فى القرن التاسع عشر حينما دخلت التربية عصراً جديداً وهى التربـية الجماهـيرية رغـم وجود الإحصاء منذ الأزل والذى كانت تعتمد عليه الجيوش فى عتادها .

٥- ونـأتى هنا إلى بيت القصيد الذى لم يتطرق إليه أحد من قبل الذى يعتبر اكتشافاً لا يقـل فـى أهميته عن اكتشاف "مقبرة توت عنخ آمون " فقد اتهموه بأنه يضع التقيـيم فى أول الفصل ثم يبرهن عليه ووصفوا ذلك بأنه استقراء ملفق ومتعسف إلا أن بعض المنصفين ذهبوا إلى أن ذلك يثبت طريقة علماء الهندسة فى البرهان علـى نظـرية هندسـية ولكن العظيم الذى لم يفهموا مغزاه سواء الباحث الأمى بـتراثه أو العلمـاء المعاصرين ضيقى الفهم وأقول وبالله التوفيق أن ابن خلدون اسـتخدم اسـتقراء لم يُعرف إلا حديثاً وهو الاستقراء الضيق الذى يستلزم وضع

التعمـــيم أو الهـــدف المراد الوصول إليه ثم يحاول إثباته حيث صُنف الاستقراء حديثاً إلى نوعين هما : ضيق وواسع .

٦- كذلـــك انتقدوا ابن خلدون بأنه استخدم منهجاً جيداً من الناحية النظرية (الملاحظة – المـــنهج الـــتاريخي – المنهج الاستقرائي – منهج المقارنة) إلا أنه لم يستطيع تطبـــيقه فـــي جميع الأحوال ، والرد الكافي في ذلك والذي وقف الباحثين أمامه مكتوفي الأيدي والمخ ففي عصرنا هذا نعجز أحياناً عن تطبيق المنهج العلمي أو بعض خطواته على مستوى العلوم الطبيعية والذي يستحيل في العلوم الاجتماعية رغـــم ما يتوفر من إمكانيات نظراً لعدم ملائمة الظروف أحياناً ولعدم الإمكانيات أحياناً أخرى فما بالنا إذا بخمسة قرون مضت من الزمن من الإمكانات الحالية ثم نعتب عليه أنه لم يطبقه في جميع الأحوال .

وهكـــذا تنطبق أبيات الشعر التالية على أمثال هؤلاء الباحثين والعلماء الأجانب والتي قالها البابا " اسكندر " وهي : –

القلـــيل مـــن التعليم أمر خطر فإما أن تنهل بغزارة أو لا تزق منابع المعرفة فالجرعات الصغيرة منه تغّيب وعينا بينما تعيده الجرعات الكبيرة إلى حاله الاتزان

والواقـــع أن الغزو والهيمنة المتمثل في قضية تأجير الأرحام كأحد بقايا المفاهيم المتنحية قد ابتدعه الغرب للتغلب على عدم القدرة الشرعية على تعدد الزوجات لديهم ، إذ لا يـــتاح للـــزوج الارتـــباط بزوجة أخرى إلا بعد وفاة زوجته أو بعد رحلة طويلة ومكلفة في القضاء ، أما نحن فقد شرع الله سبحانه وتعالى لنا تعدد الزوجات فلما إذن تأجير الأرحام هذا من ناحية ، كما أن هناك أشياء يمكن إيجارها بالاشتراك كالمحلات بـــيد أن هناك أشياءً مثل الأرحام يستحيل فيها اشتراك رجل مع آخر ولعل عندما أتاح الغـــرب ذلـــك بالرذيلة أدى إلى تفشي أمراض كثيرة أخطرها " الإيدز " ولقد أردت إضـــافة ذلـــك التعلـــيق لكي أضع الرؤية كاملة أمام القراء ولكي أضع حداً لمثل تلك المهازل .

عاشراً : فسبحان الله :

لله فـــي خلقه أيام فضل بعضها على بعض في الثواب والجزاء ، ليس فقط بل هـــناك ســـاعات أيضـــاً لهـــا أفضلية عند الله سبحانه وتعالى ، وهذه الأيام والساعات واللحظـــات قد لا ندركها بعقولنا العادية أو قد نصيب بعضاً منها بالفهم ولكن كل ذلك علـــى قدرنا ، لذا فمعجزة القرآن ممتدة ؛ لأن لكل عصر عقوله هي استيعاب ومحصلة الفهم الانساني السابق لهذا القرآن الكريم ، وهذا سر تجدده المستمر ، ولعل الله سبحانه وتعالى يخاطب دائماً أصحاب العقول الذين أعطاهم قدرة التفكير والتدبر .

هـذا ونحـاول هـنا إسـتطلاع قدر عقولنا فى هذه المرحلة التاريخية التعبير القرآنى " فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون " (الروم : ١٧) فعند التدبر هنا نجد أن تعبير الله فـى قوله " فسبحان الله " يعنى أو يعادل فى الثواب قيام الليل.. إذا كيف ذلك ؟ ؟ ، فعدد حروف " فسبحان الله " عشرة حروف ستة حروف فى كلمة " فسبحان " ، وأربعة حـروف فى كلمة " الله " وإذا ما نظرنا إلى قول الرسول الكريم المفسر دائماً لكلام الله سـبحانه وتعـالى والذى أعده مفتاحاً لكثير من كنوز القرآن الكريم " من صلى العشاء والفجر فى جماعة كأنه قام الليل كله " فهذا ترخيص من الرسول ﷺ والذى لاينطق عن الهوى لأننا يمكن توفير عناء الليل كله باستمرار من خلال صلاتى العشاء والفجر ، إلا أن هـذا الحديـث جاء ليلقى الضوء على الآية السابقة ليعطى العقل المتدبر مؤشرات ودلائل توحى بأن كلمة " فسبحان الله " تعادل قيام الليل ، الذى لو حسبنا الفترة الزمنية مـن بعد العشاء إلى صلاة الفجر لوجدنا ساعاتها تعادل حروف هذا التعبير القرآنى فى فصـل الشـتاء ولو ذكرت " سبحان الله " فى آيات أخرى تعبر عن قيام الليل فى فصل الشـتاء لفارق توقيت ساعة واحدة كما يحدث عند تغيير الفصول ولا نملك إلا أن نقول لله فـى خلقـه شئون ، وكأن الله جل قدره يقول للإنسان بل ويهدى إليه رخصاً متعددة ومتتالية ، لكى ينال من فضله عز وجل ما شاء وما قدر .